من التسامح إلى التفاهُم

عبد الرحمن السالمي

يقـول علماءُ أُصول الفقه والكلام في الإسلام: إنـه «لا مُشاحّـة فـي الاصطلاح»، وهـم يعنون بذلـك أنـه لا عبـرة بالألفـاظ والمبانـي؛ بـل العبـرة بالمضاميـن والمعاني، فقد تختلـف الألفاظ والأساليب ويكـونُ المقصودُ واحـداً، وغالباً ما يكون الاختلاف في الألفاظ فـي بدايات نشـوء المنظومـات الفكرية، حتّى إذا استقـرت الثقافـة واستوت على سوقهـا، ينشأُ عالَمٌ مصطلحيٌّ يجري التعارُف عليه بين أهل الفنّ والصنعة، فيقـلُّ الاختلافُ فـي الشكل، وينصـرف المتحاورون أو المتجادلـون إلـى قـراءة ونقـد مـا وراء المصطلحات المتعارَف عليها من مفاهيم.

بَيْدَ أنّ هذا المذهب في فهم الاختلاف المصطَلَحي أو التعـدُّد المصطلَحـي ليـس صحيحـاً علـى إطلاقه؛ فالمصطلـح تعبيرٌ تشخيصـيٌّ عن فهمٍ معيَّنٍ في مجال

علـمٍ معيَّنٍ، وظرفٍ تاريخيٍّ معيَّن. ولذا فإنّ الاختلاف المصطلحي يُعبِّرُ فـي الغالب عن مناهج مختلفة في الفهم والتقويم والحكم معاً، وينطبقُ هذا الأمر على مصطَلَحَيْ التسامُح والتفاهُم، فقد ظهر مصطلح التسامُح فـي أوروبا فـي القرن السابـع عشر، عندمـا كان الخـلافُ الديني بين البروتستانت والكاثوليـك مؤدّياً إلى نزاعاتٍ وحروبٍ كثيرةٍ وكبيرة. ولأنّ الخـلاف الدينيَّ كان يؤدي بين الطرفين إلى شلل في الحياتين الخاصة والعامة، ويُعطِّلُ سُبُل العيش والبناء؛ فقد كان التسامُح (كما فهمه جون لوك) مقصوداً ومطلوباً لإزاحة الخلاف الديني عن مجال الحياة العامة، بحيث يستطيع المختلفون دينياً أن يبقى كلٌّ على دينه أو مذهبه الخاصّ، ويستطيـع فـي الوقتِ نفسه أن يتعايشَ مـع الآخرين الذين يختلف عنهم فـي الدين والمذهب. وبواسطة ذهنية التسامُح هذه يمكن للمختلفين أن يتعاونوا في تنظيم شأنهم العامّ، وفي إقامة علائق مع الآخرين المقيمين خارج الوطن أو الدولة بالروحية ذاتِها.

وعندما أطلَّ المسلمـون على الأزمنة الحديثة، كانت مرحلةُ التسامُح لديهـم قـد استتبَّتْ، فقـد ظهرت لديهـم ـ وفي مجالهـم الحضاري في الحِقَـب الوسيطة ـ مذاهب كلاميةٌ وفقهيةٌ متعددة، وقامت بينها نزاعاتٌ واسعةٌ ما لبثت أن خمدت بالتدريج في المسائل الدينية والأُخرى المتّصلة بها. إنما الذي حدث أنّ الأزمنة الحديثة والمعاصرة أتت معها بمشكلاتٍ وقضايا كان من الصعب الاتفاق على وسائل وطُرُق لمواجهتها، وكما لدى كُلّ الأُمَـم والثقافـات؛ فـإنّ التحديـات الخارجية لا تلبـثُ أن تتحول إلى نزاعاتٍ داخلية تستشري وتَتعاظَم، وهذا ما جرى للمسلمين عندما ووجهوا بتحديات الحداثة. ولذلك ظهرت الحاجةُ من جديدٍ إلى التسامُح تجديداً للمقولـة المشهـورة: (نتعاون فيمـا اتفقنا فيه، ويعـذُرُ بعضُنا بعضاً فيما اختلفْنـا فيه). وتعبيراً عن هذا الواقع كان هناك من آثَرَ مفرد التساهُل

علـى مفرد التسامُـح، وهنا لا مُشاحّةَ في الاصطـلاح بالفعل، وقد حدث فـي أواخر القرن التاسـع عشر أن استخدم سائر المفكّرين هذا المفرد، وسواء في ذلك مَنْ عرفوا التاريخ الفكري الأوروبي وَمَنْ لم يعرفوه.

وعندمـا نشأت مجلـة التسامُح في مطلع القـرن الحادي والعشرين، كان للأخـذ بهذا المصطلح اعتبـاران: اعتبار الاختلاف بين المسلمين، وضـرورة تجاوُز تلك الخلافـات إلى رحابة الإسـلام. واعتبار العلاقات الجديـدة بين الإسلام والديانات الأُخرى؛ وبخاصـةٍ الأديان الإبراهيمية فـي شتّى مذاهبها ومدارسها. وقد سلكـت المجلةُ سبيل التسامُح بأمانةٍ ونزاهـةٍ شديدتين، فنشرت بحوثاً ودراسـاتٍ لكُتّاب من شتى الاتجاهات الفكريـة في ديار المسلميـن وفي الخارج. وفي النـدوة الفقهية السنوية التـي تقيمُهـا وزارةُ الأوقاف ـ كما في موسمهـا الثقافي السنوي ـ أقبلت المجلـةُ على نشر سائر المحاضـرات للمدعوّين، على اختلاف منازعهم ومذاهبـم الفكريـة والدينية. وكان المقصودُ مـن وراء ذلك أنّ الانفتاح ضـروري، وأنّ الإفادة ممكنةٌ بـل ضرورية من مقولات هؤلاء المختلفين، فـي عمليات التقدم والتطوير الجاريـة بالسلطنة والوطن العربي والعالم الأوسع. وفي المجال الآخر ـ مجال الحوار بين المسيحيين والمسلمين ـ سَمَـت المجلـة للإسهام فـي صُنع علاقـةٍ جديدةٍ خارج أجـواء الجدال والفوضـى، فالقضيةُ هـي قضيةُ تجديد العلائق بيـن الدينين العالميين الكبيرين، بعد عهودٍ من الخصام ووجوه النزاع. وقد تعاونت المجلة من ـ ضمن سياسات الوزارة ـ وانفتحت على جامعاتٍ وكنائس واتجاهات في الدراسات الدينية وفلسفة الدين، في الولايات المتحدة، وفي أوروبا. وكان هنـاك تجاوُبٌ كبيرٌ، بحيث صارت المجلـةُ بيئةً خصبةً للنقاش والتغيير لدى المسلمين، كما لدى المسيحيين في نظرتهم للإسلام، وتعامُلهم مع المسلمين.

وقـد رأينا بعد عقدٍ من العمل والنقاش أن نتقدم خطوةً أُخرى على درب التعـارُف القرآني الواسع والعميق؛ بالمصير إلى تسمية المجلة في المرحلة التطويرية الجديدة بالتفاهُم. ولا يعني ذلك أنّ الخلافات انتهت بيـن المذاهـب الفكرية أو بين الأديان؛ لكنّ هذا التغيير يعني أنّ للحوار والنقاش هدفاً رأينا أن نهيئَ لذهنيته؛ ليكونَ واضحاً تماماً، وهو الوصول إلى التفاهُم أو اللقاء على قواسم مشتركة، نعملُ على تأكيدها وتعظيمها. فكما جاء في الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجـرات: 13] فالتقـيُّ والـورِعُ من المسلمين هو الذي يُغالـبُ ميولَهُ ونوازعه التنافُرية من أجل الدخـول في خـطّ التفاهُم والتعـارُف القرآني. وهذه السبيـل هي سبيلُ القـرآن الكريم ودعوة النبي صلـواتُ الله وسلامُهُ عليه؛ إذ حمل القرآن دعـوة الديـن الواحد، دعـوة التوحيد، التـي تتضمنُها مِلّـةُ إبراهيم أبي الأنبيـاء عليه السلام، فأقبل النبي ﷺ على دعوة المشركيـن إلى الله الواحد، كمـا أقبل على إبراز القواسم المشتركـة للتفاهُم على الدين الواحد مع أهل الكتاب الذين يقولون بالتوحيد، والمطلوب منهم ومن أتباع النبي ﷺ تحقيق مقتضياته: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. فهناك أهل الكتاب الذين يملكون مثل ما نملك من هدىً ونور، وهناك الكلمة السواء التـي هي مقتضى الهدى والنور والقاسم المشترك الداعي للتفاهُم على عبـادة الله الواحد، وهناك السواسية أمـام الله والناس؛ بحيث لا تسُودُ الغَلَبـةُ فـي الإيمان وفـي العلاقات، فإنْ أصـرُّوا على الخـلاف فإننا لا نُنازعُهُـم، بل نؤكّـد أننا مستمرون في هذا الإسلام، هذا الدين الواحد، والذي لا بد أن نلتقي عليه عاجلاً أو آجِلاً.

لقـد قال المفكر الألمانـي المعاصر أكسل هونيت لأستاذه هابرماس الداعـي للتواصُـل من طريق الحـوار: إنّ ذلك لا يمكـن أن يكونَ هدفاً؛ لأنـه يصبح حـواراً من أجل الحوار؛ بل ينبغي تجـاوُزُ ذلك إلى التفاهُم أو الاعتـراف المتبـادَل؛ أي أنّ غاية الحوار ينبغي أن تكونَ التفاهُمَ على قواسم مشتركة أو جامعة.

إنّ مجلـة التفاهُم إذ تتخذ هذا المفرد عنوانـاً لها إنما تقصدُ إلى تطويـر نهجها، وإلى تحديد الغاية مـن وراء الحوار، كما تريد أن تسعى لتحقيق ذلك بالمزيد من الجَهد الفكري والعلمي، وتعميق النقاش، ونحن نضـع نُصْبَ أعيُنِنـا هذا الهـدف القريب/ البعيد: هـدف التلاقي على تفاهُمٍ كبيرٍ مع أنفُسِنا ومع العالم.

والله ولي التوفيق